16
الاحتـــرام

يشعر المرء على نحو ما أن من الخطأ أن يكون حليق الذقن حلاقة نظيفة في صحراء غوبي. وهكذا فأنا في الصباح التالي أترك ماكينة الحلاقة في حقيبة الغسيل، وأسحب الستائر إلى الخلف وألقي نظرة غير حليقة عبر الريف في الخارج.

وتحت نافذتي في الطابق الثاني مباشرة هناك امرأة غربية تضع على أظافر أصابعها طلاءَ أظافر برتقالياً لامعاً. وأنا قادر على أن ألحظ هذا لأنها كانت تقوم بتمارين تيجي، وهي الشكل الصيني البطيء الحركة من التمرين (وتلفظ في الغرب غالباً تي تشي)، في الفناء تحت نافذتي مباشرة. وليس لدي أي فكرة مَنْ هي هذه المرأة ـ ويحتمل أن تكون الأجنبية الوحيدة الأخرى في جانغيي ـ ولكنها تحرك ذراعيها وجسدها ببطء شديد في الوقت المناسب بالتزامن مع إيقاع قديم قدم القرون كانت هي على ما يبدو قد فتحته، هنا في فندق جانغيي.

في الميدان المركزي الضخم في المدينة، ليس بعيداً عن الفندق، يبدو أن عدة عشرات من النساء الصينيات في متوسط العمر ومن النساء المسنات كن يتوجهن في الاتجاه المعاكس روحياً، أو في التمارين في الهواء الطلق على الأقل، وكن ينظرن إلى الأعلى إلى شاشة تلفاز عملاقة، تطل فوق الميدان، والجميع يحاولن متابعة درس التمارين الذي يجري عرضه على الشاشة. والشاشة مملوءة بخمس نساء صينيات لائقات بدنياً على نحو مستحيل يؤدين تدريباً حيوياً متزامناً مع بعض الموسيقى الغربية النابضة. والقائدة تهدر بإصدار الأوامر. والمجموعة المكونة من جدات أقل لياقة بدنية نوعاً ما من صحراء غوبي يحاولن أن يجعلن أجسادهن في تماس مع القرن الحادي والعشرين.

وبالنسبة إلي، إنه يوم آخر رائع تعلوه سماء زرقاء صافية، ومحطة أخرى رمادية من صحراء غوبي لحافلات الركاب، وركوب آخر على طول الطريق الأم. ولسبب ما،

فإن كل جباة التذاكر في محطة حافلات الركاب الصغيرة في جانغيي، التي تتحكم بحركة كل حافلة داخلة إلى البلدة وخارجة منها، من النساء. وكلهن يلبسن لباساً موحداً رمادياً كامداً. وما يثير الدهشة أكثر، أنهن كلهن يضعن أشد حمرة للشفاه لمعاناً يمكن تخيلها. وهو ما يصنع منظراً آسراً نوعاً ما، وكأنهن قررن أن يقدمن بياناً جماعياً ضد سآمة أعمالهن، أو رمادية لباسهن الموحد، أو امتداد صحراء غوبي الذي يبدو بلا لون. أو ربما كن كلهن يحببن طلاء الشفاه الأحمر القاني.

وحافلات الركاب التي يدرنها مليئة كلها تقريباً، ومعظمها بعمال الإنشاءات المتوجهين غرباً للبحث عن عمل. وكانت الجِمال منذ وقت طويل قد تنازلت عن دورها سفينة للصحراء إلى حافلات الركاب للمسافات الطويلة التي تقطع الطريق 312، وقد تزايد المرور زيادة هائلة. وتغيرت الحمولة كذلك. إنها ما زالت حول التجارة، طبعاً، ولكنها الآن أيضاً عن الإنشاءات والاتصالات.

إن مشروعاً ضخماً قيد العمل، بدأ يتقدم، من دون أن يلاحظه العالم الخارجي تقريباً. الصين مشغولة في تعمير مناطقها الغربية، تماماً مثلما بدأت الولايات المتحدة عملياتها في غربها الخاص منذ أكثر من مائة عام. إن بكين تحاول أن تربط غربها غير المتطور مع بقية البلد، ومثلما كانت الحالة بالنسبة إلى الولايات المتحدة، توجد مشكلات في ترويض كل من المناظر الطبيعية البرية وتأليف الشعوب المحلية.

ويدعى المشروع باسم «افتتاح العمليات الكبيرة والتطوير في المناطق الغربية». (ويرى بعض النقاد أن الكلمة المستخدمة في الصينية لتعبر عن التطوير في عنوان المشروع يحسن أن تترجم بشكل أكثر دقة وعلى نحو مناسب بشكل أفضل بكلمة «استغلال» لا «التطوير». وفي اللغة الإنجليزية يشار إليها في الغالب للتبسيط باسم حملة «اذهب غرباً»). وكان المشروع قد أطلق رسمياً في التسعينيات من 1990، ولكن الحملة هي الشكل الرسمي لسياسة الحكومة المركزية في الاستثمار في المناطق الغربية وهي السياسة التي كانت قد بدأت في وقت أبكر في التسعينيات من 1990. وتقول بكين إن هدفها هو رفع مستوى المعيشة للشعب الذي يعيش هناك، وخصوصاً الأقليات العرقية في شينكيانغ، التيبت، والمقاطعات النائية الأخرى. ذلك بلا ريب صحيح. ولكن ما لا

تذكره بكين هو الميزة السياسية المتمثلة في شراء الأقليات العرقية المحلية لكي تقلل احتمالات عدم الاستقرار.

والسطح الزفتي اللامع للطريق 312 هو إلى حدٍ كبير جداً جزء من ذلك المجهود المبذول.

طريق الحرير ملأ الوعي الغربي بوجه من الوجوه، بالصور الغريبة عن الجِمال وهي تفحج أرجلها في طريق طويل، محملة بالتوابل، والخزف، ومحملة طبعاً، بكميات من الحرير الخام بألوان متأنقة بارعة. والواقع، من البلدات الوسخة، والفقر، وقطاع الطرق، والنزل القذرة، والصحراء القاحلة التي تبدو بلا نهاية، كان واقعاً أقل غرابة. ولكن كثيراً من الأشياء قد تحسنت منذ أن عبر ماركو بولو من هنا قبل ثماني مئة عام، والكثير من ذلك التغيير يعود فيه الفضل إلى الشارع 312. لقد كانت البنية التحتية الفضلى والاتصالات حاسمة في جلب التطور إلى مناطق الصين النائية. واليوم، تعج البلدات الواحات الكبيرة الموجودة على الطريق بالحياة والنشاط، ولكن المستوطنات الصغيرة، الواقعة بين تلك البلدات، مازالت بلدات صحراوية قذرة، وهي تقدم القليل وتتوقع أقل من القليل.

جلس إلى جانبي في حافلة الركاب مسلم، هو عضو من مجموعة أقلية الهوي، وهم أحفاد التجار الفرس والعرب الذين استقروا في الصين الغربية منذ قرون. ويقول إن اسمه جانغ غوشينغ، ولكنه يضيف بكبرياء أن اسمه الإسلامي هو محمد إسماعيل، وأنه يتحدث اللغة العربية بطلاقة. وكان قد طوى بنطاله الطويل ليبقى بارداً، وهو بهذا يكشف عن زوج من الجوارب البيضاء الشفافة تقريباً، وحذاء أسود بكعبين أعلى قليلاً مما يلزم بالنسبة إلى رجل ليس منغمساً انغماساً نشيطاً في نوع ما من الرقص اللاتيني. وهو بدوره يلقي نظرات على حمولة بنطالي القصير المتسخ، وينظر خصوصاً إلى ساقي الشعرانيين والوسخين، وإلى قدمي اللذين أحرقتهما الشمس، وهما مثبتان في صندلهما المفضل. ليس هناك من رجل صيني يحترم نفسه يمكن في أي وقت أن ينتعل الصنادل من دون جوارب.

جانغ تاجر من تجار طريق الحرير الجديد. وهو شاب في الرابعة والثلاثين من عمره يبيع الهواتف الخليوية الجوالة ويسافر عبر الصحراء ومعه حقيبة مليئة بالهواتف الجوالة. وهو يتوقف في كل بلدة واحة، ويعقد صفقات مع محلات متخصصة أو مع أي شخص غيرها يريد أن يمارس العمل التجاري، ثم ينتقل. مضى الآن على جانغ وهو يسافر جيئة وذهاباً على الطريق 312 سبع سنوات. ويقول إن الطريق 312 قد أحدث اختلافاً ضخماً بالنسبة إلى عمله. ويقول كان السفر على الطريق القديم على متن حافلات الركاب القديمة يستغرق وقتاً طويلاً جداً. أما الآن فيستطيع أن يبلغ البلدة التالية في مجرد ساعات لا غير.

ويقول: «طوال السنوات القليلة الماضية، أراد كل شخص أن يمتلك هاتفاً خليوياً جوالاً. إنه رمز المكانة. ولكن يوجد الآن العديد جداً من الباعة، ويوجد الكثير جداً من المنافسة، فالعمل لذلك ليس على مستوى الجودة التي كان عليها في العادة».

هاتف جانغ الجوال هو واحد من آخر نماذج هواتف نوكياً، وهو أكثر جمالاً خيالياً من جوالي، وهو الأمر الذي ينظر إليه نظرة الرضا، وكأن تفوق جواله في وجه من الوجوه انتقم لحروب الأفيون.

يمكن أن يكون محرجاً في هذه الأيام في الصين ألا تكون غربياً ماهراً من الناحية الفنية أو أن تكون غربياً غير ميال جداً للزي الدارج. وأنا أربح جوائز في كلا الصنفين. الشعب الصيني مصاب بوسواس التقانة الحديثة وهم باستمرار ينظرون من فوق أكتاف الأجانب في الطائرات وفي حافلات الركاب، ليتفحصوا ما نفعله، وما نلبسه، وكم هي تقانتنا متقدمة. وقد انتقدني رجل أعمال صيني لامتلاكي حاسوب حضن (لاب توب) قديم (كان عمره عاماً تقريباً)، وانتقدني سائق سيارة أجرة في بكين لأن سيارتي رثة الحال (ليست مرسيدس ولا أودي، مجرد جيب شيروكي قديم مكسر)، وانتقدني عدد من المتحمسين للرقميات لإصراري على استخدام آلة تصوير تحتاج إلى فيلم تصوير.

وهكذا فهنا يوجد خط حديدي حي آخر يتجه إلى الغرب: إنه خط المعلومات السريع غير المرئي الذي يئز على طول ممر هوشي إلى الصين الشمالية الغربية. البائع جانغ وهواتفه الجوالة، والفنادق المتصلة بالأسلاك وبارات الإنترنت، لها كلها أثر تحويلي على المجتمع الصيني، ومن جملته هذا الغرب الأقصى. في أمريكا الشمالية وفي أوروبة غيرت الهواتف الجوالة والإنترنت المجتمع، ولكنها من عدة وجوه قامت فقط بمجرد جعل أشياء كانت متوافرة من قبل أكثر ملاءمة لراحة الناس. أما التأثير في الصين فقد كان أعظم إلى حدٍ بعيد بعيد. في بداية العام 2007، كان قد صار 137 مليون نسمة في الصين على الإنترنيت يصلون إلى المعلومات التي لم تكن قط من قبل في متناولهم. والهاتف الجوال أيضاً حول الاتصالات. ففي بداية العام 2007، كانت الصين قد امتلكت أكثر 450 مليون مشترك بالهواتف الخليوية الجوالة، مع زيادة إجمالية تقدر بخمسة ملايين تقريباً في كل شهر. وفي بعض المناطق، التي لم يكن فيها الهاتف الأرضي الثابت بعد، قفز الناس قفزاً كالضفدع ليتقدموا مباشرة إلى الهواتف الخليوية. وعلى طول كل طريق الحرير الجديد، توجد تغطية كاملة الإتقان للهواتف الجوالة.

أمامي على امتداد خط مستقيم كالقطر الواصل بين زاويتين يجلس رجلان يظهر أنهما زميلان، أحدهما في العشرينيات من عمره، ويحتمل أن يكون الآخر في الخمسينيات. وبدأت بالمحادثة معهما، وتبين أنهما بائعا بذور، يسافران إلى جيوشاوان في عمل تجاري، وجيوشاوان هي المكان الذي أتجه إليه أيضاً.

ويجلس خلفي زوجان كانا يعملان في صناعة النفط هنا في غانسو ولكنهما الآن تقاعدا وعادا إلى الشرق إلى الساحل. وكانا قد بدأا بمحادثة مع عامل في النفط يجلس إلى جانبهما. وقد شاركتهم في هذه المحادثة.

وأسأل الزوجين: «كيف كانت الطرق في الماضي آنئذ حين عشتم هنا؟»

ويقول الرجل وهو في الستين من عمره يبدو بصحة شبابية: «لم يكن هناك طرق تقريباً في الستينيات من 1960، لم نكن نحتاج إليها، لأننا لم نكن نحتاج إلى الذهاب إلى أي مكان. فإذا احتجنا كنا نذهب في القطار».

وتقول زوجته: «هذا الطريق، الطريق القديم 312 لم يكن معبداً أيضاً». وهي امرأة طويلة وأنيقة نوعاً ما، على الرغم من أنها كانت محصورة في مكان ضيق في الصف الخلفي من حافلة مزدحمة، وممتلئة حتى كامل حمولتها بثلاثين أو أربعين راكباً.

الطريق 312 الجديد مستقيم وسريع، ورمز للحداثة التي تبدو أحدث مما يلزم للبيئة القاسية، القاحلة لمر هوشي. الطريق 312 الجديد قد سرّع نبض هذا الجزء من الصين، شريان جديد حسن الوصول إلى البلدات الصغيرة الموجودة هنا، بطريقة لم يكن يستطيعها طريق السكة الحديدية. والطريق يعطي مرونة للباعة المسافرين ليصلوا إلى القرى والبلدات الصغيرة، ليجلبوا معهم الثورة الاقتصادية إلى هنا كذلك.

ويوجد خط أنابيب نحيل مرئي بشق النفس على طول الطريق في الخارج في الصحراء إلى يمين الحافلة، وهو يحمل النفط من الشمال الغربي ويصبه عبر عنق الصين ليغذي به الشرق الجائع.

ويقول الرجل العامل في النفط، بصوته العميق الخفيض: «ذلك من أجل النفط القادم من حوض تاريم، وهو ذاهب ليكرر في لانجو». وحوض تاريم هو واحد من أكبر حقول النفط في الصين. «وهم يبنون خطاً آخر إلى الصين من أوزبكستان».

كل هذه العوامل ـ الطريق الجديد 312 والطريق القديم، والسكة الحديدية والطريق السريع العالي للمعلومات ـ تصنع اختلافاً ضخماً للناس الذين يعيشون هنا. ولكنني أعتقد أن خط الأنابيب ربما يكون أكثر أهمية من الطرق نفسها ومن الخط المزفت الذي يسير إلى جانب خط الأنابيب. فالكثير جداً في الصين الآن يعتمد على النفط. وأهمية النفط ترن رنيناً صامتاً نزولاً في كل طبقة من المجتمع. ويجب على الحزب الشيوعي أن يحافظ على الاقتصاد نامياً، وإلاّ فإن العاطلين عن العمل، والعاطلين جزئياً يستطيعون التسبب في عدم استقرار اجتماعي. وكي يحافظ الحزب على الاقتصاد نامياً، يجب عليه أن يبني مصانع جديدة ويخلق أعمالاً جديدة. (وقد حسب بعض الاقتصاديين أن على الحزب أن يفتح 24 مليون وظيفة في كل عام لكي يفعل ذلك). ولتزود الصين المصانع والمنشآت بالنفط، يجب

عليها أن تمتلك المزيد من النفط وكي تحقق ذلك الهدف فهي تبحث عن النفط داخل حدودها الخاصة وهي تخرج إلى العالم، تعقد صفقات في إفريقية، وفي آسيا الوسطى، وفي جنوب شرق آسيا.

وأسأل الرجل العامل في النفط: «هل تملك الصين نفطاً كافياً؟»

ويجيب وهو يحملق في الخارج في الصحراء: «لا، ليس بعد».

ويتراجع كل واحد منا إلى أفكاره الخاصة، محدقاً في خارج نوافذ الحافلة، والأرض الصفراء ذات الشجيرات التي لا تنتهي تقول شيئاً مختلفاً، بلا ريب، لكل زوج من العيون. ومازالت جبال شيليان المغطاة بالثلوج ترتفع إلى الجنوب من الطريق، والصحراء تمتد إلى ما وراء الأفق إلى الشمال. هذا هو الامتداد النهائي من ممر هوشي، والذي ينتهي عند «فم الصين»، القلعة الموجودة في جيايوغيوان. مازلنا على بعد ما يقارب ست مئة ميل عن أرومجي، وعلى بعد ألف ميل تقريباً عن نهاية الطريق.

وتستمر الحافلة في المسير، تتخطى حافلات أخرى أكبر منها، ثم يجري تخطيها من شاحنات ريح الشرق الزرقاء ومن سيارات فولكسفاجن سيدان سوداء من حين إلى آخر. وترخي الستائر الرقيقة لتمنع شمس الصحراء القاسية.

ويفصل الطريق سياج من الأسلاك عن أرض الشجيرات المفتوحة من الصحراء، وخلف السياج مجموعات صغيرة من الناس، تمشي متجولة تنظر إلى الأرض، وينحنون إلى الأمام من حين إلى آخر ليلتقطوا حفنات من الخضرة من أرض الصحراء الجافة.

وأسأل: «ماذا يفعلون؟»

ويصيح بائع البذور الأصغر سناً بصوت أعلى من ضجة الريح الساخنة المندفعة إلى الداخل عبر النوافذ المفتوحة ويقول: «إنهم يلتقطون عشبة اسمها فاكي. وهي نوع من العشب يؤكل. ويبيعونه إلى هونغ كونغ».

«هل هو طيب الطعم ؟»

«في الواقع لا. ولكن اسم النبات يبدو مثل الكلمات التي تقول «صر غنياً» بلهجة كانتون، وهكذا يحب أهل هونغ كونغ أن يأكلوه. فهم ميالون جداً إلى التصديق بالخرافة».

وتأتي جامعة التذاكر، الجابية، راجعة لتجبي الأجور. أظافرها مدهونة بأنماط ملتفة معقدة، ووجهها مزين بزينة جميلة، وهي تبدو أفتن إلى حدٍ بعيد جداً من أن تكون قاطعة تذاكر في سيارة تعمل على خط طويل المسافة عبر صحراء غوبي. في حياة مختلفة، كان يمكنها أن تكون في هوليود. وتجلس امرأة أفتى مع طفل رضيع في صف أمامي على استقامة قُطرِ مكانِ الجلوس وهي تحدق من فوق كتفيها من مقعدها، وتبتسم بحياء حين التقطْتُ نظرتها إلي.

وأقول لها: «طفلك سمين جداً».

وهي تشع راجعة إلي باعتزاز.

وفجأة يسألني تاجر البذور الأكبر سناً: «ماذا تعتقد بشأن الصين ؟» وهو شخص بدأ يصلع رأسه، وله وجه ودود، ويقول إن اسمه جو.

وأبتسم له ابتسامة فارغة وأقول: «أنا أحبها».

ويسأل زميله الأصغر سناً: «وماذا يعتقد معظم الناس في الغرب بشأن الصين ؟» فأقول له إن الناس في الغرب مشوشون قليلاً بشأن الصين لأنها بلاد تبدو رأسمالية جداً ولكنها تدار من حزب شيوعي.

ويقول السيد جو مع ابتسامة، «نحن كلنا مشوشون بشأن الصين. إنه زمن مشوش بالنسبة إلى الكثيرين من الناس، هناك الكثير جداً من التغيير».

ويسود الصمت في وقفة قصيرة. فأنا متعب من طرح الأسئلة نفسها، وهكذا فأنا أحاول أن أفكر بشيء ما جديد. وأسال السيد جو: «ماذا تريدون أكثر ما تريدون من الغرب ؟»

ولم يتردد هو بالإجابة: «ما نريده أكثر من أي شيء هو الاحترام». ورد بلا تفكير، وكأنه كان قد انتظر كل حياته ليقابل شخصاً أجنبياً في حافلة ويطرح عليه هذا السؤال. «نعم، نحن نريد الاحترام أكثر من أي شيء. أنا أريد أن أذهب إلى الخارج، مثلكم أيها الناس حين تأتون هنا. فأنتم تأتون إلى الصين، ونحن نحترمكم لأنكم أغنياء، ومتمدنون. ذاك ما أريده كذلك. أريد أن أذهب إلى بلدكم، وأن أكون محترماً، وأن أحصل على عمل جيد هناك وألا ينظر إلي نظرة دونية».

وبدا الزوجان مندهشين قليلاً من كل من العاطفة ومن الفصاحة في رد جو، ولكنهما يومئان برأسيهما. ومثل ذلك فعل كل شخص آخر.

ووقفة أخرى يسود فيها الصمت. والصحراء تتحرك باستمرار في الخارج. ونوعية الطريق الجديد، هنا كما هي في أماكن أخرى على طول الطريق، كانت قد خلقت من قبل في نفسي على نحو باطني شيئاً ما من الاحترام الذي يتوق إليه جو.

ثم يضيف قائلاً: «ونحن نريد السلام».

وفجأة تقول السيدة الكبرى: «أنتم، الأمريكيون، تحبون أن تجمعوا المال من خلال الحرب، أليس كذلك؟»

وأحاول أن أشرح أن معظم الناس في الغرب لا يريدون جمع المال من خلال الحرب، وأنهم يجمعون المال من خلال العمل الشاق. وما تريد الحكومة عمله من خلال الذهاب إلى الحرب شيء مختلف اختلافاً كاملاً، وهو ليس شيئاً بالفعل له علاقة بالشعب، الذي يريد أيضاً السلام، وأقول لها إن كثيرين من الناس في أمريكا وأوروبة كانوا معارضين لحرب العراق.

وتنظر إلي طويلاً وبصلابة، وبلا شك فإن صور الجرحى من العراقيين المدنيين التي تملؤ برامج الأخبار الحكومية الصينية تتردد في ذهنها.

ويستدير بائع البذور الأصغر سناً، ويبتسم لي ويقول: «نحن، الصينيين، اخترعنا ملح البارود، ولكنكم أنتم، الغربيين، اخترعتم المدفع الذي جئتم به هنا لتقتلونا. نحن، الصينيين، اخترعنا البوصلة، ولكنكم أنتم، الغربيين، استخدمتموها لتبحروا وتخرجوا إلى الشرق لتحتلوا أرضنا».

ويبتسم الناس ثانية، ليس هناك عداوة في صوته، أو إيماءاتهم برؤوسهم. إنه التاريخ. لا يمكن تغييره.

وأسأل السيد جو: «هل تعتقد أن الصين تحصل حالياً ببطء على الاحترام؟»

ويجيب: «نعم، ولكنه سوف يستغرق مدة أطول بكثير».

«كم طولها ؟»

ويجيب: «عشرون عاماً على الأقل».

ومرة أخرى تومئ الرؤوس بصمت.

وأقترح قائلاً: «الشعب الصيني صبور تماماً، أليس كذلك ؟»

ويجيب: «نعم، هم كذلك».

هناك أشياء قليلة تمثل الرغبة الصينية في الاحترام بالقدر نفسه الذي يمثله مركز جيوتشوان للفضاء. فبعد كل ما يقال، فإن بلدين فقط كانا قد وضعا رجلاً في الفضاء قبل أن فعلت الصين في شهر تشرين أول/ أكتوبر 2007، وكانتا الدولتين العظميين في الحرب الباردة، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وإذا كنت تبحث عن علامات تشير إلى أن الصين تريد أن تكون القوة الكبرى التالية، في وقت مازال 100 مليون من شعبها يعيشون بأقل من دولار في اليوم وفي وقت تقوم فيه بقية العالم بتخفيض برامجها الفضائية، فإن إطلاق رجل إلى الفضاء يبدو عملاً رمزياً مناسباً.

بعد ما يقارب أربع ساعات، يصل الطريق 312 إلى جيوتشوان. واسم البلدة يعني «نبع الخمر،» وهذا يبدو غريباً بالنسبة إلى بلدة صحراوية على حافة آسيا الوسطى المسلمة إلى حدٍ كبير. وكانت البلدة موقفاً رئيسياً على طريق الحرير القديم وهي موقف تتزايد أهميته بوضوح على طريق الحرير الجديد. ومثلها مثل كل واحات صحراء غوبي، فهي بلدة تحولت في السنوات القريبة. والناس يعبرون من خلالها، طبعاً، ولكنهم الآن يستقرون هنا كذلك، مغتنمين فرصاً جديدة، يتصل بعضها من

دون شك بمركز الفضاء الضخم في الصحراء على بعد مائة ميل في الصحراء خارج البلدة. والرفاهية المعتدلة غاية هنا أيضاً. ضواحي جيوتشوان غابة من رافعات الإنشاءات ومباني الشقق الجديدة. ومحالها التجارية المتخصصة مليئة بالهواتف الخليوية الجوالة المباعة من الباعة مثل صديقي الجديد جانغ. ويوجد بارات إنترنيت. وكل واحد يتكلم مع آخر.

قسم من السبب الذي تقيم الصين من أجله برنامج الفضاء هو بلا شك قلقها بشان ما يسمى تسليح الفضاء. والذهانات الهُذائية (البارانويا) القديمة التي تم تعلمها في أثناء حرب الأفيون، حول كونهم مستعدين عسكرياً مازالت موجودة.

ولكن ما يساوي ذلك في الأهمية هو قيمة البرنامج من حيث احترام المكانة. ويبدو الأمر وكأن الصينيين يقولون: «أنتم، الغربيين، تستطيعون أن تضعوا رجالاً في الفضاء، أليس كذلك؟ حسناً، نحن أقدم حضارة في العالم. نحن اخترعنا البوصلة وملح البارود والمطبعة، ونحن نستطيع أيضاً أن نضع رجالاً في الفضاء. ونحن نستطيع أن نتنافس معكم بلعبتكم الخاصة». وهو يساعد في تحريك الكبرياء الوطنية في الأمة، وامتداداً لذلك في تحريك الحزب، في وقت اختفت فيه شرعيته الإيديولوجية.

ومع ذلك، فليس كل واحد في الصين مقتنعاً بضرورة البرنامج الفضائي. وفي الحقيقة، كثيرون من الناس لا يعرفون مجرد المعرفة عن هذا الإنجاز المَعْلَم الواضح. حين أُطلقت أول سفينة فضائية صينية مأهولة، وكان اسمها شينجاو خمسة، في العام 2003، قمت بعمل المقابلات الإلزامية مع الوطنيين الصينيين الشباب المتكبرين كبراً مؤلماً في الجامعات في بكين، وأخبروني كم أظهر ذلك الحدث تطور الصين ومستقبلها وأبان عنه. ولكنني بعدئذٍ سقت سيارتي خمسين ميلاً خارج بكين وسألت بعض الفلاحين الذين كانوا يقشرون كومة من عرانيس الذرة الصفراء اللامعة عن إطلاق شينجاو خمسة وماذا يرون في ذلك؟

وسألت عدة نسوة: «ما شينجاوا خمسة ؟»

وكنت أقص هذه القصة على زميل صحافي في بكين فضحك وقال: «ذلك لا شيء». لقد ساق سيارته مائة ميل خارج بكين ووجد زوجين من الفلاحين وسألهما

عن طيران الصين إلى الفضاء الخارجي، ونظر الرجل المسن إليه وسأله: «ما هو الفضاء الخارجي؟»

وأوقِف سيارة أجرة وأطلب من السائق، إن كان يستطيع، أن يأخذني إلى مركز الفضاء، ولكنه يقول إنني أحتاج تصريحاً خاصاً من الشرطة لأبرزه عند نقاط التفتيش على طول الطريق، ويستغرق استخراج التصريح وقتاً لإتمام إجراءاته. ويقترح أن الحصول على التصريح قد لا يكون سهلاً بالنسبة إلى الأجانب. وهكذا، بتردد، أقرر أن أتوجه مباشرة إلى جيايوغوان، وهي جيوتشوان التوأم، وتقع على بعد أربعين دقيقة في سياقة السيارة عبر الصحراء.

وفي الحقيقة، ومع كل الإنشاءات الموجودة على أطراف كل مدينة، فإن من المحتمل ألا يستغرق الأمر طويلاً قبل أن تُعتصَر الصحراء الموجودة بين المدينتين ويصير التوأمان متحدين في مدينة ضخمة عملاقة واحدة. فهنا من السهل للمسؤولين أن يوسعوا مدنهم. وليس عليهم هنا أن يسرقوا أرض فلاح من الفلاحين.

أسجل الوصول إلى فندق جيايوغوان وأتجه خارجاً للقيام بالجري. الوقت متأخر في الأصيل، ولكن الشمس مازالت عالية. وحرارة الصحراء، بالمشاركة مع أسبوع كسول من دون تدريب، يجعل من الصعب الذهاب.

وتقول لوحة الإعلان الموجودة عند حافة المدينة: تبنوا نظرة تطور علمية. ابنوا مجتمعاً اشتراكياً منسجماً.

وأنا أحب جيايوغوان. فيها شعور منفتح. وعلى الرغم من وجود مصانع ضخمة في ضواحيها، وهي تضخ الدخان اللاذع في السماء الزرقاء زرقة دائمة، فهي بعيدة بعداً كافياً على نحو لا تستطيع معه أن يؤثر مباشرة على البلدة. وأنا أحب الطرق الواسعة، والمباني المنخفضة، والسماء الكبيرة. فالبلدة ليست محصورة، مثل العديد جداً من البلدات الصينية الأخرى. وهي مثل معظم مقاطعة غانسو، تمتلك الفضاء للتنفس. ولكن أكثر ما أحبها من أجله هو أنها وطن قلعة جيايوغوان، أبعد نقطة غربية من الجدار العظيم. إنها صرح فخم، قلعة مربعة ضخمة تبدو وكأنها كانت قد

أسقطت إلى الصحراء من الفضاء الخارجي. وكانت قد أنشئت أولاً تحت أسرة مينغ، في العام 1372 تقريباً، ثم وسعت في العام 1539 ورممت ترميماً كاملاً طوال السنوات العشرين الماضية. وجدرانها بارتفاع يبلغ أعلى من ستين قدماً، والقلعة كلها لابد أنها تصل على الأقل إلى ميل في محيطها.

في أزمنة مضت، كانت هذه القلعة هي نهاية الحضارة نفسها. وكان الشخص الصيني يقف على قلعة جيايوغوان فيما مضى في القرن الخامس عشر أو القرن السابع عشر ويراقب، مثل روماني نوعاً ما يقف على الضفة الغربية من الراين، وهو يعرف أن في خارج القلعة، وفيما وراء القلعة، وهنالك قبالة القلعة، يوجد البرابرة.

17
نهاية الجدار

في صيف العام 1926، وصلت إلى جيايوغوان ثلاث سيدات إنجليزيات محترمات، متوسطات العمر، يركبن عربة يجرها حمار. وهن ميلدريد كيبل، وفراسيسكا وإيفا فرنش، اللتين كانتا أختين. والثلاثة كن مبشرات مع بعثة تبشير الصين الداخلية، وفي أثناء عقدين من الزمان تقريباً وهن يعملن هنا معاً، صرن يُعرفن جماعياً باسم الثلاثي.

وقد كسب الثلاثي سمعة فعلية عن رحلاتهن على طول طريق الحرير. ثلاث فتيات نشيطات من بيوت إنجليزية جيدة، وكن قد تحولن إلى المسيحية وهن صبايا وشعرن بالنداء نحو الصين. وكانت إيفا قد ذهبت أولاً، في الحادية والعشرين من عمرها، وكانت قد هربت بصعوبة من الموت في أثناء ثورة البوكسرز المناوئة للأجانب في العام 1900. ثم التحقت بها ميلدريد كيبل بعد سنوات قليلة، ثم أكملت فرانسيسكا الفريق. وكن قد رابطن في مقاطعة شانسي لمدة عشرين عاماً حين قررن أن ينتقلن إلى الغرب ليبشرن ويخدمن الناس في صحراء غوبي. وفي عدة مرات طوال الثلاثة عشر عاماً التي تلت، بين العام 1923 والعام 1936، زارت النساء الثلاث الجدار العظيم، يعظن بالإنجيل ويقدمن العناية الطبية الأساسية. لم يكن هناك أي طريق 312 في تلك الأيام، بل لم يكن يوجد طريق معبد من أي نوع، وسافرن في كل مكان بعربة تطوى كان يجرها حمارهن المخلص، موللي.

وكتبت ميلدريد وفرانسيسكا عدة كتب مليئة بالملاحظات الجميلة عن الصحراء، وشعبها، وزهورها وحيواناتها، ومشاقها ومباهجها. وفي كتابها (صحراء غوبي) كتبت ميلدريد كيبل تصف وصولها إلى جيايوغوان ورؤيتها جلال القلعة.

> لو كان هذا بناء يعوزه الإتقان، ومثيراً للغرابة لكان وصمة في شمال غرب الصين، ولكن جماله وفخامته ينقذه من النقد، ونظراً إلى أن

الصين، بطريقتها الفريدة، أمرت بأن يكون مخرجها الغربي العظيم مضبوطاً بباب مفرد، فقد جعلت من ذلك الباب بوابة مؤثرة من النوع الذي يجعلها إحدى المناظر المؤثرة من الشرق.

وعلى الرغم من حقيقة أن الصين زعمت السيطرة على تركستان الصينية إلى الشمال الغربي، فإن جيايوغوان كانت ماتزال في أذهان معظم الشعب الصيني هي حد الحضارة، وكان ذلك في جزء منه بسبب «السكان» المسلمين الذين عاشوا فيما وراءها، ولكنه كان أيضاً بسبب الصحراء القاسية وبسبب الخوف من الشياطين التي كان يعتقد أنها تسكن هناك. والتحرك جيئة وذهاباً على الطريق 312 في حافلات ركاب المسافات الطويلة بين البلدات الواحات اليوم، يجعل من السهل نسيان إلى أي مدى كانت هذه المنطقة موحشة منفرة، في الذاكرة الحية. وكان يوجد مثل يستشهد به طوال قرون، وحتى الأزمنة الحديثة، يقول: «ما من رجل يرغب في إرسال ألد أعدائه عبر غوبي في منتصف الشتاء أو في منتصف الصيف». وها أنا ذا الآن، أثب برحلات سريعة على متن حافلات الركاب، وأقفز في سيارات الأجرة، وأعجب بمجمعات الشقق الجديدة وبالخط السريع بأربعة مسارات، وأختار من مجموعة مرتبة من المرطبات غير المسكرة في خزائن مبردة وكأنني أسافر حول نيوجيرسي.

وكانت منفرة للغاية، في العشرينيات من 1920 كذلك، كما تكتب ميلدريد كيبل، إلى درجة أنك إذا لم تكن فعلاً منطلقاً إلى الصحراء، فإنك لن تذهب قط خارج البوابة الغربية للقلعة. ولكن ذلك كان هو كل الهدف من بعثة الثلاثي، وهو التبشير بالإنجيل إلى جميع القرى في غانسو فيما وراء الجدار العظيم. وهكذا، وهن يعددن لمغادرة جيايوغوان متجهات غرباً، قررت ميلدريد أن تخرج من البوابة العظيمة لتلقي نظرة. وهي تكتب: «رغبت في إعداد نفسي للمغامرة العظيمة». وكان يصحبها رجل من القلعة.

وقال لها: «الشياطين. الشياطين هي التي تسكن غوبي. وهذا المكان مليء بها، وكثيرون سمعوا أصواتها تنادي...أنت لا تعرفين حتى الآن، أيتها السيدة، أنواع الرعب في تلك الرحلة. هل يجب أن تخرجي إلى غوبي؟

لقد جئت من سوشو (جيوتشوان حالياً). ذلك مكان جيد فيه الكثير من الناس والكثير للأكل، وأما في الخارج هناك... هل يجب أن تذهبي؟»

وردت ميلدريد، نعم، كان يجب عليها أن تذهب، لأنها كانت قد جاءت لتبحث عن الضائعين وكما تعبر هي عن ذلك، «بعضهم موجود في الخارج هناك»، وهي ملاحظة أخذها الرجل بمعناها الحرفي جداً إلى حدٍ ما، وكأنه قد يحتاج إلى ترتيب جماعة بحث.

ولم يكن الصينيون غير عارفين تماماً بما كان موجوداً فيما وراء جيايوغوان، وذلك لأنها في الأزمنة الإمبراطورية كانت مستخدمة منفى لمعاقبة المسؤولين أو الآخرين الذين أزعجوا الإمبراطور. وأحد المسؤولين الصينيين الذين كانوا يعرفون المضامين الكاملة للذهاب إلى ما وراء هذا المكان هنا كان رجل اسمه لين دزوشو. وعند أسفل قلعة جيايوغوان المهيبة، توجد حديقة لا يلاحظها السياح الصينيون على ما يبدو، وهي حديقة تذكارية صغيرة، وفيها تمثال وقد نقشت قصيدة على حجر الجدار الموجود بجانبه، والحديقة تذكار للين، الذي كان، كما تقول لوحة التمثال تحت، «أول سياسي متفتح العقل من العصر الحديث».

لين دزوشو كان هو الرجل الذي أرسله الإمبراطور في أواخر الثلاثينيات من 1830 للتعامل مع شعب المحيط على الساحل الجنوبي للصين، وهم الأجانب الذين كانوا يستوردون الأفيون ليدفعوا في مقابل الشاي والحرير والخزف.

وكما رأينا، كانت النخبة الصينية بطيئة جداً في إدراك المغزى الكامل لوصول شعب المحيط. فجميع التهديدات التي وجهت إلى الصين في الماضي كانت قد جاءت من البر، من فرسان الشمال، من سهوب آسيا الوسطى فيما وراء المكان الذي أقف عليه الآن. وبعد أن ووجه بالرفض الأجنبي لوقف استيراد الأجانب للأفيون، كتب لين في العام 1839 رسالة إلى الملكة فيكتوريا، يطلب منها أن تضع شخصياً حداً يوقف تجارة الأفيون ويسألها إن كانت هي تسمح بأن يجلب الأفيون إلى بريطانيا بهذه الطريقة. وتكشف نبرة الرسالة أن رؤية الصينيين لأنفسهم وللعالم لم تكن قد تغيرت كثيراً منذ بعثة اللورد ماكارتني الفاشلة في العام 1793، قبل خمسين سنة تقريباً.

إن إمبراطورنا وعلى نحو رائع يسكّن ويهدئ الصين والبلدان الأجنبية، وينظر إلى الجميع باللطف نفسه. فإذا كان يوجد ربح، فهو يتقاسمه آنئذٍ مع شعوب العالم، وإذا كان يوجد أذى، فهو يزيحه آنئذٍ عن العالم. وذلك لأنه يتخذ عقل السماء والأرض عقلاً له. إن ملوك بلدكم المحترمة بموجب تقليد تسلمونه من جيل إلى جيل كانوا دائماً مرموقين من أجل أدبهم وخضوعهم... والحقيقة هي أن البرابرة الأشرار يخدعون الشعب الصيني ليأخذوه إلى مصيدة الموت. فهل يمكن، أيتها الملكة، أن تكبحي أشراركم، وأن تنخلي الأشرار من شعبك قبل أن يقدموا إلى الصين، لكي نضمن السلام لأمتك، ولإظهار المزيد من الإخلاص من أدبكم وخضوعكم، ولنجعل البلدين يتمتعان معاً بنعم السلام.

وذكر لين كم كانت الصين محسنة في صادراتها الخاصة، وضمّن ذلك ربما الاستخدام الأول والوحيد في التاريخ للراوند أداة في الدبلوماسية الدولية. لقد ناشد البريطانيين أن يمعنوا النظر ويراعوا التأثير على كل حركات أمعائهم إذا سحبت صادرات الراوند الصينية، مع كل تأثيراتها المليئة.

هل توجد سلعة من الصين ألحقت أي ضرر بالبلدان الأجنبية؟ خذ الشاي والراوند، على سبيل المثال، فالبلدان الأجنبية لا تستطيع أن تتدبر أمرها ليوم واحد من دونهما. وإذا قامت الصين بقطع هذه المنافع من دون أي تعاطف مع أولئك الذين سيعانون، وآنئذٍ ما الذي يستطيع البرابرة أن يعتمدوا عليه ليبقوا أنفسهم أحياء؟

مع التجار البريطانيين (وأمعائهم) المتماسكة بصلابة على الرغم من مثل هذه التهديدات، اتخذ لين خطوة فاجعة، ففي أيار / مايو 1839، قاد عملية الاستيلاء على مائتي صندوق من الأفيون وأمر برميها في البحر.

موقفه الذي اتخذ خطأً متشدداً كان هو تماماً العذر الذي كان البريطانيون ينتظرونه. وحين رد البريطانيون بتخريب ونهب أجزاء واسعة من جنوب الصين وشن حرب الأفيون الأولى، عمد الإمبراطور، الذي كان قد وافق شخصياً على السياسات

القوية للين، إلى طرده. وصار لين دزوشو كبش فداء لهزيمة الصين وعانى مصير كثيرين من قبله، لقد قذف به إلى ظلمة البرابرة في المنفى فيما وراء جيايوغوان، إلى وادي بيلي، وهو في الحقيقة المكان الذي يشكل محطتي الأخيرة، وفيه يلتقي الطريق 312 بالحدود الصينية مع كازاخستان.

والحديقة التذكارية الخاصة بلين دزوشو فارغة الآن، ليس فيها أحد غيري، وليس هناك شخص صيني واحد هنا، ليقدم الاحترام للرجل الذي حاول أن ينقذ الصين بالوقوف في وجه الأجانب. شخص واحد فقط من شعب المحيط، من الأرض التي تسببت في إهانة لين، ينظر إلى الأعلى إلى تمثاله مع توازن محسوب من الاحترام والعار، ويقرأ القصيدة الفلسفية والمتحدية باعتدال التي كتبها وهو يعبر من هنا، وأتعجب ماذا كان سيظن بمصانع الإسمنت ومعامل البتروكيماويات التي تحيط بجيايوغوان الآن، أو بالإنترنت عالية السرعة والهواتف الخليوية الجوالة التي تربط الشعب الصيني أحده إلى الآخر وإلى العالم.

بالتأكيد كان انتقام لين بطيئاً، وجاء بتكلفة بشرية ضخمة. لقد استغرقت الصين مئتي عام تقريباً لتبدأ بالثأر للإهانات التي أوقعها بها الغرب. ومازال ذلك الانتقام غير كامل. ولكن ثأر لين يبرز أخيراً: الصين القوية، بلد فيه الحدود مختومة بحزم، وبلد فيه القبائل الشمالية لا تهدده كل عام، وبلد فيه شعب المحيط لا يستورد العقاقير أو يسرق الأرض. كان على خلفاء لين أن يكسروا العلاقة مع الطرق الكونفوشيوسية لكي يحققوا الحداثة، وكان عليهم أن يحطموا الكثير من الأشياء التي كان لين يتمسك بها بوصفها عزيزة، ولكن التغييرات تحدث في كل مكان حتى هنا.

جيايوغوان الآن مقصد سياحي كبير. فمن حديقة لين، تستطيع أنت أن تتحدى مواقع السياح وتتجول خلال البوابة الضخمة المفتوحة عند المدخل المؤدي إلى القلعة نفسها. وفي قلب القلعة تماماً، توجد مرشدة سياحية تدور مع مجموعة من السياح الصينيين حول الفناء القديم تفرجهم عليه. وكلهم يمسكون بآلات تصوير رقمية غالية الثمن ويلبسون قبعات صفراء متلائمة. هذا هو المكان الذي عاش فيه القائد المسؤول عن الحامية، في مجمع منفصل، في مجموعة كاملة تضم زوجته وخدمه.

وأسماء جميع القادة الذين كانوا قد عينوا هناك منذ العام 1516 مدرجة على لوح خارج الفناء.

وتبدأ المرشدة جولتها: «في الأزمنة الإقطاعية... ». وأنا أنظر من فوق، والرؤوس تومئ، ربما هي سعيدة لأنها تحررت من الأزمنة الإقطاعية.

أمتلك في جيبي رقم هاتف لطالب يعيش في جيايوغوان، وأنا على وشك أن أهاتفه لأدعوه لأرى إن كان وقته حراً لتناول العشاء هذه الليلة. أعطتني هذه الصلة الأميرة الزهرية، بائعة أدوات التجميل التي سبق أن قابلتها على الطريق إلى البلدة التيبيتية شياهو. حين سمعت أنني كنت متجهاً غرباً، قالت إن لديها صديقاً في جيايوغوان ويجب أن أهاتفه. وكما هو المعتاد، فقد افترضت أن علي أن أهاتفه. وربما سيكون هو الشخص الذي سيعطيني تلك البصيرة المعلِمة عن الحياة في البلدة الحدودية. وربما يكون هو الشخص الذي سيعرفني إلى شخصية مثيرة للعجب التي ستجعل كل شيء واضحاً لي. ولكن الآن بعد أن صرت هنا، قررت ألا أفعل. وعلى كل حال، أنا أعرف تماماً ما سيقوله طالب من جيايوغوان. «مستقبل الصين مشرق. والحياة تتحسن. دعونا نكن جميعاً أصدقاء».

هناك أساسات عديدة للتفاؤل في الصين، ولكن كان لدي اليوم عدد كاف من المتفائلين. أنت في بعض الأيام تكون فعلاً مستبشراً في الصين، وفي بعض الأيام تكون فعلاً مكتئباً. واليوم، أنا فعلاً متعب من حافلات الركاب، ومن الحرارة، ومن السفر، ومن المتفائلين أيضاً. ألم يسبق لهؤلاء الناس قط في أي وقت أن ذهبوا إلى قرى الإيدز من هينان الجنوبية؟ (الجواب: لا). ألم يسبق لهم قط في أي وقت أن اعتقلوا وأوقفوا من دون تهمة أو محاكمة لسنوات في النهاية. (لا، مرة ثانية، بالنسبة إلى معظم الناس.) ألم يسبق لهم قط أن كان عليهم أن يبيعوا أجسادهم للدفع من أجل الطعام لعائلاتهم؟ (ربما لا). أنا لا أريد أن أطرح أي أسئلة أخرى أو يكون هناك من يطرح أسئلة علي عن نفسي. أنا أرغب بشيء ما نادراً ما تجده في الصين، وتلك هي الوحدة، والصمت.

وهكذا أجد نفسي باحثاً عن أبعد ركن في القلعة، وأكثرها عزلة، وهو برج مراقبة لا تذهب إليه مجموعات جولة السياح.

أقف لمدة طويلة من الزمان، أنظر إلى الخارج إلى غوبي المنفتحة انفتاحاً واسعاً وإلى الجبال التي مازالت تلبس قمة من الثلوج فيما وراء غوبي. وأنا أراهن أنه لم يكن هناك أي من المتفائلين حول هذه المنطقة هنا حين اكتسحها جنكيز وأصدقاؤه قادمين من السهوب.

«مرحباً. من أين أنت؟»

بشكل ما، وجدني شاباً بشوشاً يتحدث الإنجليزية. ونسير عبر الروتين المعتاد. ويخبرني كيف أنه قد قُبِل منذ قليل للكلية في بكين، على بعد ألف وأربع مئة ميل، وكم هو متأثر من أنه سيكون عليه أن يذهب في الصف الإعدادي الأول في غضون أسابيع قليلة. ويقول كم هو محب لبلده.

ويقول: «آمل أن تنمو الصداقة بين بلدينا لتكون أقوى».

وينادي شخص ما، وهو ينادي بالصينية ويقول إنه موجود هنا، خلف برج المراقبة عند الركن. ويظهر رجل، وهو والده. جندي، لا يتحدث الإنجليزية وربما لم يكن قد امتلك خيارات في الحياة. وابنه يمتلك خيارات، يمتلك العديد منها. إنه ممتلئ بالأمل لنفسه ولبلاده. يريد أن يجعل الصين عظيمة. إنه مهذب، وَوَدود، وراغب ومثالي، ويفيض بالتفاؤل. إن من المستحيل ألا تحبه.

إن الذي قال: أن تسافر خير من أن تصل، كائناً من كان، لم يسبق له في أي وقت قط أن أخذ الحافلة الليلية من جيايوغوان إلى دونهوانغ. ومثل الثلاثي الجريء، ومثل كثيرين من قبل ومنذ ذلك الحين، أقرر أن أسافر ليلاً. يجب أن تستغرق معي مجرد ثماني ساعات، ولكنها بدلاً من ذلك تستغرق ست عشرة ساعة. فالطريق 312 يجري توسيعه. والمشروع حسب المخطط له يجب أن ينتهي في العام 2007، وهكذا ففي الوقت الذي تقرأ فيه أنت هذا الكلام، فمن المحتمل ألا يكون ذلك مشكلة، ولكن بالنسبة إلى ست عشرة ساعة من هز العظام فهي مشكلة بالنسبة إلي.

وأبعد من ذلك إلى الشرق، وقبل أن يصل الطريق 312 جيايوغوان، حيث توجد البلدات والقرى على جانب الطريق، كان الطريق السريع الجديد بمساراته الأربعة قد بني على طول الطريق 312 القديم ـ خطان مستقيمان أسودان ينسابان إلى الغرب أحدهما إلى جانب الآخر. ولكن جيايوغوان لم تعرف باسم «فم» الصين من دون سبب، وذلك لأنه لا توجد خارج الفم فعلاً إلا قرى قليلة جداً مطلقاً. وهكذا لا يوجد سبب لاستبقاء الطريق القديم. لقد حفر وتجري إعادة وضعه ليكون طريقاً سريعاً بأربعة مسارات. وفي أثناء بناء هذا الطريق السريع، تم تحويل كلا مساري المرور إلى السطح الفعلي للصحراء، موازياً للطريق.

وإذا كانت موسيقى طريق الحرير القديم هي صوت قوافل الجمال، فإن اللحن المميز الموضوع لطريق الحرير الجديد هو فيلم كونغ فو المعروض في حافلات الركاب للمسافات الطويلة. فنحن لم نكد نخرج من محطة حافلات جيايوغوان حتى أسقط السائق قرص فيديو رقمي (دي في دي) مسروق بعنوان (قبضات الغضب)، أو هو (نينجا القاتلة)، أو ربما (مقاتلون من الجبل المسحور؟) وأنا أفقد الأثر. والركاب الصينيون، صادقون مع السلوك حسب الأصول، فما من واحد منهم يبدو أنه يلاحظ الرفس، واللكم، والصراخ الذي ينفجر من جهاز التلفاز الصغير المركب على مقدمة الحافلة، وقد اندهش السائق حين طلبت إليه أن يخفض الصوت.

نومي محكوم بالمطبات الموجودة في الطريق وبالهاتف الخليوي الجوال للرجل الجالس إلى جانبي. فحين يرن الهاتف يعزف لحن بيتهوفن بصوت عال، وهو يرن مراراً وتكراراً. ولا يهم أين أجلس في حافلة الركاب، فأنا على ما يبدو أنتهي إلى جانب الرجل الذي لديه أوركسترا في ملابسه الداخلية.

أستيقظ ورقبتي متيبسة مع طلوع النهار، متوقعاً أن أكون في دونهوانغ تقريباً. ولكن السائق يقول لسنا قريبين في أي مكان. ونحن لم نصل ولو إلى آنشي، وهي بلدة على بعد 130 ميلاً تقريباً إلى الغرب من جيايوغوان. ودونهوانغ نفسها تقع على بعد 70 ميلاً بعيداً عن الطريق 312 إلى الجنوب. بعد أن ننعطف بعيداً عن الطريق 312، تنتهي أعمال المرور، ويستطيع السائق أن يزيد السرعة على طول الشارع المزفت

ليحاول أن يعوض بعض الوقت. والغيوم البيضاء المنفوشة تنتشر كالنقط في سماء زرقاء متألقة فوق رؤوسنا. ويمكن أن نرى على جانب الطريق أبراج منارات دالة قديمة مبنية من الطين، أبراج كانت توقد فيها النار فيما مضى لمساعدة الناس على المسير نحو الواحات. ووقفت إلى جانبها الآن أبراج الهاتف الخليوي الجوال. وأتلقى رسالة نصية من صديق يجلس إلى جانب مسبح فندق فخم في بانكوك.

ويبدو أن نصف الحافلة مليء بعمال إنشاءات، متجهين غرباً للبحث عن عمل وعن راتب أفضل، ربما يكون مائة دولار في الشهر، وليس تسعين (وذلك يصنع فرقاً كبيراً)، مستفيدين من الحملة الحديثة للحكومة المركزية لتطوير المناطق الغربية. ومعظم العمال من جماعة الهان ومن جماعة الهواي (وهم الصينيون المسلمون). ورحلة مثل هذه، تأخذهم بعيداً «خارج فم» الصين التقليدية الأصلية، تبدو الآن رحلة طبيعية مثل أي شيء. لا توجد أي شياطين في غوبي بعد الآن.

أجلس إلى جانب رجل أكبر سناً، فوق الخمسين، وهو يبدو من خارج المكان قليلاً من بين كل المهاجرين الشباب.

ويقول لي: «الحياة الآن أفضل بكثير جداً. يوجد الكثير جداً من الفرص زيادة عما سبق. كان من عادتنا أن نبحث في النفايات بكل بساطة لنحصل على الطعام في أثناء الخمسينيات والستينيات. أما الآن، فكل جامع قمامة يمتلك هاتفاً خليوياً جوالاً. فهل تقول لي: إن ذلك ليس تقدماً؟»

من اليسير أن تفقد الرؤية لعدد الأشياء الكثيرة التي تحسنت في الصين حين تسافر على طول الطريق 312 وتقضي مدة طويلة في مناطق ريفية فقيرة. فبالنسبة إلى أناس مثل هذا الرجل، الذي عانى المجاعات في أواخر الخمسينيات من 1950 وفوضى الثورة الثقافية في الستينيات، تُعَدُّ الصين الحديثة، مع كل مشكلاتها الكثيرة، أفضل بمليون مرة. ليس هناك حملات سياسية مجنونة، ولا حملات اقتصادية طائشة، ولا اتهامات شجب قسرية للجيران. إنه منظورك هو الذي يصنع كل الاختلاف. فبالنسبة إلي، يُعَدّ مجرد إمكانية تدخل الدولة في حياتي أمراً غير مقبول. وبالنسبة إليه، فإن حقيقة أن هذه الإمكانيات قد تراجعت، ولو كانت مازالت هناك في الخلفية، تعني أن

الصين الحديثة جنة. «بالمقارنة بماذا؟» هو السؤال الذي يجب عليك دائماً أن تسأله في الصين. ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل قد عانى أشياء، وشارك في أحداث، لم يكن إلا على قلة من الغربيين في أي زمان أن يتحملوها. والآن يستطيع هذا الرجل أن يختار ما يفعله. وذلك، بالنسبة إليه، تقدم.

وتستمر الحافلة بالصراع، نقطة وحيدة تتحرك ببطء عبر بحر من الرمال. ويوجد لدى المنغوليين إلى الشمال من هنا مثَل عن الجَمال المؤثر تأثيراً قوياً لصحراء غوبي. فهم يقولون: يجب عليك أحياناً أن تذهب إلى غوبي لتمدد روحك. وفي أثناء سفرك عبرها طوال ساعات وساعات، تبدأ بفهم ما يعنيه أولئك المنغوليون. فبعد البلدات والقرى الزاخرة، وبعد التلال والوديان من الصين الشرقية، تنفتح الأرض والسماء هنا، وتحتضن كل منهما الأخرى، وتجعلك تريد أن تتوقف، وتنزل من السيارة، وتحتضنهما أنت أيضاً. ولكن احذر مما ترغب فيه.

انعطفنا بعيداً عن الطريق 312، ولكننا مازلنا على بعد ما يقارب ستين ميلاً من دونهوانغ حين سمعنا فجأة ضجة مشؤومة نوعاً ما لصوت صرير من المحرك. وتفقد السيارة القدرة وتتوقف على جانب الطريق. وكان يصعب أن تختار أرضاً أكثر تنفيراً من هذه ليحدث فيها ما حدث. ليس هناك حرفياً أي شيء سوى الصحراء لمسافة أميال حولنا. لا تتوقف فيها شاحنة، ولا يوجد فيها قرى، ولا أي شيء.

ويرفع السائق الغطاء الموجود فوق صندوق المسننات الموجود إلى جانب دولاب القيادة، ثم يخرج ليلقي نظرة تحت السيارة. وبعد مدة، يصير واضحاً أننا لسنا ذاهبين إلى أي مكان، ولذلك جعلته يفتح حجرة الأمتعة. والتقطت حقيبة ظهري ومشيت مائة ياردة في الطريق بعيداً عن سيارتنا المصابة، محاولاً أن أؤشر لسيارة أخرى. قلة لا تقف، ولكن واحداً وقف في النهاية وكان علي أن أركض في الطريق في الحر وحقيبتي الثقيلة على ظهري إلى المكان الذي وقفت فيه السيارة. ويفتح السائق حجرة الأمتعة في سيارته، وأنا أرمي حقيبتي وأقفز صاعداً على السيارة. إنها مليئة بالسياح اليابانيين، الذين كانوا لا بد يسوقون سيارتهم من أقرب وصلة سكة حديدية، في ليويوان، على جانب الطريق 312. والحافلة مكيفة الهواء على نحو جميل ولا تشغل أفلام كونغ فو بصوت عال.

وأخيراً، أوه أخيراً جداً للغاية، نقترب من المدينة. وتبدأ الصحراء تتراجع ببطء وتحل محلها شجيرات الرتم البنفسجية، ثم الأشجار الشائعة وبعض حقول الذرة، وأخيراً الطريق الذي تصطف عليه الخضرة الكاملة الباهرة للواحات. هذه هي دونهوانغ، الواحة الأسطورية لطريق الحرير وموطن كهوف موغايو منذ ألف وستمائة عام، وفيها كان المسافرون يقفون ويصلّون من أجل سلامة المرور عبر أسوأ قسم من الصحراء، وهي تنفتح نحو آسيا الوسط

18
كهوف ألف بوذا

على قمة سطح فندق دونهوانغ من فئة الأربعة نجوم لطريق الحرير، تقف مجموعة من السياح اليونانيين الأثرياء وهم ينظرون إلى كثبان الرمل المتدحرجة المعروفة باسم الرمال المغنية ويحلمون بزمان مضى. وخلفهم يوجد سياح أسبان، كانوا على ما يبدو في نوع ما من حالة حلم اليقظة. وإلى جانبهم يوجد سائحان أمريكيان، يحملقان إلى الأعلى مباشرة في سماء الليل المرصعة بالنجوم. ويجلس رجل إنجليزي شارد وحده يرتشف بيرته، ويعرف الموقف بشكل أفضل يجعله لا يخدع بكل تلك البضاعة السياحية الزائفة الرخيصة عن طريق الحرير، وهو مع ذلك، ينظر إلى الأعلى إلى السماء ويتنفس بعمق، وكأن هلال القمر قد يفرز رائحة محسوسة من الشرق. من العسير في دونهوانغ، ألا تنجذب إلى الرومانسية المحضة لكل هذا الشيء. بالنسبة إلى الغربيين، البلدة مكان للحلم بكل أحلامك الغريبة من الليالي العربية من ألف ليلة وليلة من الشرق.

وعلى بعد أميال قليلة، يجلس شباب صينيون ملء غرفة يحققون خيالاتهم عن الغرب. لا توجد هنا ليال عربية من ألف ليلة وليلة، وأفكارهم الوحيدة عن طريق الحرير ربما تكون كيف تصل إلى أبعد ما يمكن عنه. ومجموعات الشباب الصينيين تجلس في مقهى إنترنت طوال أربع وعشرين ساعة في مركز دونهوانغ، وعيونهم ملصقة بشاشات حواسيبهم وهم يخوضون معركة ألعاب الفيديو على الخط المباشر. في الممرات الجانبية في الخارج، أزواج شباب يرغبون بالشراء يستعرضون واجهات المتاجر طافحين بخيارات من الإلكترونيات وأدوات التجميل، والملابس والعقارات، يتذوقون الرفاهية الجديدة لبلدتهم وربما يفكرون بشأن إمكانيات السفر إلى خارجها.

لم يكن التقابل بين الشرق والغرب في شارع البند في شنغهاي كاملاً إلى هذا الحد. فالأجانب يحاولون إعادة خلق بعض الماضي الصيني الرومانسي غير المحسوس، في حين يحاول الشعب الصيني أن يهرب من الماضي ويبني مستقبلاً ملموساً غير رومانسي جداً.

كان فندق طريق الحرير في دونهوانغ قد صمم ليتلاءم مع الخيال الغربي عن طريق الحرير. بجدرانه المقلدة من لبن الطين والقش وبهوه البارد بالسقف العالي، وهو مبني بأسلوب بناء يبدو للعين الأجنبية، أنه من آسيا الوسطى. ليس لدي أي فكرة إن كان كذلك، ولكنَّ حقيقةَ أنه يتلاءم مع فكرتي المتخلية سابقاً عن عمارة طريق الحرير تجعلني أشعر شعوراً طيباً حول المبيت هنا، على الرغم من أنه أغلى فندق في البلدة، وهم يكلفون الغربيين أن يدفعوا زيادة إضافية من أجل الفطور. ولا ضرر في أن لديه باراً في قمة سطح رائعة، تستطيع منها أن ترى الكثبان الرملية من الصحراء والنجوم المتألقة، المتألقة المتناثرة عبر السماء في الليل.

واسم دونهوانغ يعني في الصينية «المنارة الملتهبة». وهو يعطيك فكرة بصرية جيدة عن الموقع الجغرافي للبلدة. لقد كانت دائماً بلدة واحة حاسمة، مع أن سكانها ازدادوا زيادة كبيرة في القرن الماضي، حتى بلغوا أكثر من مائة ألف نسمة. وطريق الحرير ابتداء من العاصمة القديمة في مدينة شيان في الوقت الحاضر إلى آسيا الوسطى وإلى أوروبة سار مباشرة تقريباً إلى دونهوانغ، على طول الممر الذي يسلكه الآن من الطريق 312. فإلى الشمال من البلدة تماماً، تفرع طريق الحرير إلى طريقين رئيسين: طريق الحرير الشمالي، وهو الذي أسير عليه في رحلتي، وهو يتلوى كالثعبان إلى الشمال الغربي إلى هامي وتوربان وأرومجي، دائراً حول الجانب الشمالي من صحراء تاكليماكان المخوفة. وطريق الحرير الجنوبي شق طريقه، ومازال يشقها إلى الجنوب الغربي، من خلال البلدات القديمة، الأقل زواراً وهي: ميران، وخوتان، وياركاند على طول الحافة الجنوبية لصحراء تاكليماكان. والمنارة الملتهبة في دونهوانغ كانت هي آخر واحة كبيرة قبل الامتدادات الضخمة للصحراء، وهي التي أعطت الإشارة للمسافر أن الطعام، والماء، والمأوى كانت متوافرة هنا.

ولكن البلدة كانت، ومازالت أكثر بكثير من مجرد حفرة سقاية، أو مكان تجمع اجتماعي. لأن دونهوانغ هي موطن بعض أقدم رسوم الكهف البوذية المحفوظة في العالم وأفضلها، وكان المسافرون يجتمعون فيها ليصلوا من أجل حفظهم في عبور الصحراء، أو لتقديم الشكر على المرور الآمن. وأكثر من ذلك، أن الأحداث التي وقعت في هذه البلدة الواحة الغامضة في مطالع القرن الثاني عشر لعبت دوراً مهماً في حث الصين الضعيفة، والمهزومة على أن تعاود اختراع نفسها وأن تتحول إلى البلاد القوية بشكل متزايد والمحترمة اليوم.

في 12 آذار / مارس، 1907 تصادف وصول عالم آثار هنغاري المولد يعمل لدى الحكومة البريطانية في الهند إلى بلدة دونهوانغ قادماً من الجنوب الغربي بعد رحلة شاقة لمدة ثلاثة أسابيع عبر الصحراء. وكان هو وفريقه من المعاونين المحليين، ومن الجمال، والخيل قد سافروا 260 ميلاً من خرائب مدينة صحراوية منسية تدعى لولان إلى الغرب، وكانوا مرهقين، وقذرين، وجياعاً. وكانت دونهوانغ في العام 1907 بلدة فقيرة، ووسخة، ومعزولة، ولكنها كانت مثل الأرض الموعودة بالنسبة إلى عالم الآثار وقافلته المرهقة.

كان الرجل هو أوريل ستاين، وما كان سيحدث طوال الأشهر القليلة التي تلت وصوله سوف يؤكد بقاء اسمه في الأضواء في حوليات علم الآثار الغربي، وأما في الصين فقد عاش سيئ السمعة.

كانت المملكة الوسطى مازالت موجودة وستعيش خمس سنوات أخرى قبل إطاحة النظام الإمبراطوري، ولكن البلاد كانت من قبل ذلك في حالة تقارب الانهيار. فالقوى الاستعمارية كانت قد اقتطعت مجالات نفوذها وكانت تحتلب الصين حتى الاستنزاف. وكان النخبة الإمبراطورية قد تمسكت تمسكاً يائساً بأوهامها عن العظمة الثقافية، وكانت غير قادرة على قبول ضعفها وغير راغبة بالتخلي عن سلطتها. وكانت موجات عديدة من الإصلاح من الأسفل قد أخمدت بفعل الضغط من الأعلى، وخصوصاً من الإمبراطورة الأرملة المحافظة للغاية. ولكن بعد أن قامت القوى الغربية بقمع ثورة البوكسر المعادية للأجانب، في العام 1900، وبعد أن أجبرت البلاط على دفع

تعويضات مالية مذلة، أدركت الإمبراطورة الأرملة وحلفاؤها المحافظون المقاومون للإصلاح بعناد أن عليهم أن يغيروا. ولكن ذلك كله جاء متأخراً جداً، وانهارت البلاد في الحال.

وفي المناطق الغربية في العام 1907، كانت السيطرة الصينية مهزوزة للغاية، على الرغم من أن الأراضي الواقعة خارج فم قلعة جيايوغوان كانت على ما يفترض جزءاً من إمبراطورية أسرة شينغ العظيمة منذ إخضاعها في انتصارات منتصف القرن الثامن عشر. وقامت أسرة شينغ بحملة واحدة أخيرة لتهدئة الغرب في الثمانينيات من 1880 ولكنها لم تكسب أي قلوب وعقول من السكان المحليين في أثناء العملية، وكان وجود حكومة مركزية ضعيفة زائداً اتصالات هزيلة في كل أنحاء البلاد يعني أن بكين مارست سيطرة مباشرة صغيرة جداً على المناطق النائية مثل غانسو، وشينكيانغ، التيبت. وكانت البقايا الإمبراطورية الضعيفة للبلاط في بكين قد تركزت على محاولة الدفاع عن الصين ضد شعب المحيط القادم من الشرق. ولم يظنوا ولو قليلاً أن بعض شعب المحيط الماكر سيتسلل إلى الداخل من الغرب وله أهداف آثارية، لا عسكرية.

وكان البريطانيون والروس قد بدؤوا لعبة الشطرنج الجغرافية الإستراتيجية الخاصة بهما مثل اللعبة الكبرى التي خلدها روديارد كيبلنغ في كتابه، (كيم)، عن الإمبراطورية البريطانية. وكان قسم كبير من اهتمام كل منهما في غانسو، وتركستان الصينية (شينكيانغ الآن)، التيبت اهتماماً استراتيجياً. لقد توسع الروس إلى آسيا الوسطى وكانوا يستكشفون أطراف إمبراطوريتهم. وكان البريطانيون قلقين بشأن إغارات الروس في الهند الإمبراطورية، وهكذا بدأت الجهود باهتمام جدي لرسم خريطة المناطق المحيطة بشبه القارة. وأرسل البريطانيون الجواسيس، وكانوا في الغالب تحت غطاء، لمسح البلدان المحاذية، وبشكل رئيسي ليعلموا إن كان الاقتراب الروسي إلى الهند من الشمال ممكناً أو مخططاً له.

والاهتمام الآخر، الثانوي، للبريطانيين وللروس، ولكثيرين غيرهما، كان اهتماماً آثارياً. وسرت هناك إشاعات لبعض الوقت في أثناء منتصف القرن التاسع عشر عن وجود مدن بوذية مخبأة تحت الرمال المتحركة في تركستان الصينية، وربما

كانت حضارة بوذية منسية بأكملها. وقام ضباط الاستخبارات البريطانيون بغزوات مفاجئة سرية أسفرت عن اكتشافات مثيرة للاهتمام، أقنعت علماء الآثار في الهند البريطانية بأن هناك في الحقيقة منتجات خيالية من صنع الإنسان تحت الصحراء، وبدأ سباق بين القوى الأوروبية للكشف عنها.

والرجل الذي برز بوصفه جداً للاكتشاف الأوروبي الواسع النطاق كان رجلاً سويدياً عنيداً متحدياً اسمه سفين هيدين. وقام هيدين بأربع حملات استطلاعية إلى آسيا الوسطى بين العام 1893 والعام 1935. وكان يعرف هيدين بغرابة أطواره، مثل عزف موسيقى بيزيت المسماة (كارمن) في صندوقه الموسيقي في وسط الصحراء. ولكنه كان مستكشفاً جسوراً تجرأ على الظروف الشرسة في الصيف والشتاء وشرب حصته العادلة من بول الجمال حين نفذت إمدادات الماء لديه في الصحراء. وفي رحلته الاستطلاعية الثانية في العام 1899، اكتشف هيدين مدينة لولان التي كانت مفقودة لزمن طويل، وهي موقع متقدم مزدهر سابقاً على طريق الحرير وكانت قد اختفت تحت الرمال حين غير نهر تاريم مجراه في القرن السادس.

سفين هيدين والروسي الشهير نيكولاي بيرجيفالسكي، الذي تجول أيضاً في كل أرجاء تركستان الصينية التيبت، كانا أول وأهم المستكشفين، وكلاهما اشتغل بعلم الآثار. (وكان هيدين جغرافياً كذلك ورسام خرائط.) أما أوريل ستاين، في المقابل، فكان عالماً قمة في علم الآثار، وكان مستشرقاً، وهو الذي دعاه فيما بعد العالم الآسيوي العظيم أوين لاتيمور «أعظم مزيج جمع العالم، والمستكشف، وعالم الآثار والجغرافي في جيله».

في أثناء رحلته الأولى في العام 1900، مصحوباً مع قافلة كاملة من الجمال والمرشدين المحليين، وكلب صيده الجسور داش، سافر أوريل ستاين صاعداً من الهند على طول طريق الحرير الجنوبي، وبدأ بالتنقيب والكشف عن مدينتي داندان ـ يوليك ونييا. ووجد هناك لا الدلائل على الوجود الصيني فقط من القرن الثامن بل وجد أيضاً أختاماً صلصالية على ألواح خشبية تصور آلهة يونانية، تبين أن الصور الفنية الغربية كانت قد سافرت شرقاً على طول طريق الحرير. وفي الماضي حتى ذلك

الزمان، ما من أحد عرف أن التأثيرات الأوروبية قد سبق لها في أي وقت أن وصلت إلى ذلك البعد.

وفي رحلته الثانية، في الصيف من 1906 ــ 1907 زار ستاين مدينة لولان، وهي المدينة الصحراوية التي كان هيدين قد اكتشفها قبل سبع سنوات خلت. ونفذ حفريات آثارية شاملة في درجات حرارة تحت الصفر (وكان العمل في برد مجمِّد يُعد أسهل من العمل في حرارة شديدة محمِّصة) واكتشف المزيد من الوثائق الفاتنة، التي كشفت الكثير عن الموقع الصيني السابق المتقدم في الغرب.

وهكذا، ففي ذلك الصباح البارد من آذار/مارس في العام 1907 حين وصل أخيراً إلى دونهوانغ، كان أوريل ستاين متألقاً بالنجاح. ومذكراته عن الرحلة، وهي الكتاب الفاتن (خرائب صحراء كاثي)، يوحي بأنه لم يكن يتوقع أن يعمل أي شيء أكثر من زيارة كهوف الألف البوذا، وهي سلسلة من الكهوف التي صنعها الإنسان وكانت معروفة طوال مدة مديدة للمسافرين الذين كانوا يتوقفون في دونهوانغ. ولكن بعد وصوله مباشرة، سمع من تاجر من أرومجي أن راهباً طاوياً اسمه وانغ يووانلو، كان قد عين نفسه حامياً ورئيس رهبان للكهوف، قد اكتشف غاراً سرياً كان قد ختم لعدة قرون. وسرت في السوق كلمة تقول إن الكهف كان مليئاً بالمخطوطات القديمة.

وذهب ستاين، مع جيانغ، كاتبه الصيني المخلص، القريب في متناول اليد، في زيارة إلى رئيس الرهبان وانطلق في بناء صداقة معه بغرض واحد في رأسه: وهو إقناع الراهب بأن يسمح له بأن يرى، وبعدئذٍ من المحتمل أن يسمح له بأن يأخذ، بعضاً من المخطوطات الثمينة.

وبحث ستاين عن أرضية مشتركة مع رئيس الرهبان وانغ في إعجابهم المشترك في شوين دزانغ، الراهب الصيني المعروف معرفة جيدة في كل أنحاء الصين بسبب سفرياته إلى الهند بحثاً عن الكتب المقدسة البوذية في القرن السابع. رئيس الرهبان وانغ كان فعلاً متأثر المشاعر من أن ستاين كان معجباً متحمساً لشوين دزانغ ووافق في النهاية على السماح لستاين بأن يقرأ بعض الوثائق القديمة، ثم سمح له بأن يدخل

إلى داخل الكهف المكتبة نفسه. ووصف ستاين بتعبير مخفف متحفظ للخبرة التي شعر بها يناقض أهمية الاكتشاف.

منظر الغرفة الصغيرة التي انفتحت كان منظراً جعل عيني منفتحتين. ظهرت مكدسةً للأعلى في طبقات، ولكن من دون أي نظام، ظهرت هنالك في الضوء الخافت للمصباح الصغير لدى الكاهن، كتلة صلبة من رزم المخطوطات ترتفع إلى علو يقارب عشرة أقدام تقريباً، وتملأ، كما أظهر القياس اللاحق، ما يقارب 500 قدم مكعب.

لقد كانت كنزاً من مجموعة نفيسة من المخطوطات في عدة لغات، ومن جملتها الصينية، والسنسكريتية، التيبيتية، والويغورية. ومجملها يقارب أربعين ألف مخطوطة. بعد أسابيع من المشي على رؤوس الأصابع بلطف حول وانغ ومخاوف رئيس الرهبان من فقدان نفوذه على الكهوف، نجح جيانغ المساعد الصيني لستاين، في أن يقنع وانغ بأن يسمح بالاستغناء عن بعض المخطوطات. وبزيادة المبلغ ببطء، حصل بالتدريج على المزيد، حتى دفع 130 جنيهاً إسترلينياً في مقابل تسع وعشرين حاوية مليئة بالمخطوطات، والرسوم، والمطرزات، والتذكارات الأخرى، وبعدئذٍ شحنت عائدة إلى المتحف البريطاني.

حين عاد ستاين إلى إنجلترا، حلل هو وخبراء آخرون الوثائق واستنتجوا أن الكهف المكتبة كان مختوماً حتى 1000 بعد الميلاد تقريباً، وكان هواء الصحراء الجاف يساعد على حفظ المخطوطات. وتبين أن إحدى الوثائق هو أقدم كتاب مطبوع معروف في العالم، (دياموند سوترا)، وهو لفة مصنوعة من سبعة ألواح من الورق، كانت قد استخدمت القوالب الخشبية المحفورة للطباعة عليها. وهو الآن محفوظ في المكتبة البريطانية، وهذه المكتبة، إلى جانب المتحف البريطاني، قالت إنها لن تعطي أي مخطوطات وتعيدها إلى الصين.

حين سرت الكلمات عما اكتشفه ستاين وخرجت للعلن، بدأ السباق. وقد تبعه عالم آثار فرنسي متألق ولغوي اسمه بول بليو، وأقنع أيضاً بطريقته للوصول إلى المكتبة الكهف في دونهوانغ ونجح في نقل مئات أخرى من المخطوطات وعاد بها إلى باريس.

ثم جاء آلبرت فون لو كوك، وهو ألماني أرسله متحف الأعراق البشرية في برلين. وبدأ الروس واليابانيون أيضاً يدخلون في العمل. وأخيراً، في العام 1923، أُرسِل الأستاذ لانغدون وورنر إلى دونهوانغ من طرف متحف فوغ في هارفارد. وكان قد طور طريقة مبدعة لتجريد الرسم عن الجدران وبدأ يفعل ذلك لا غير في بعض الكهوف في دونهوانغ، وشحن الرسوم بالسفن عائداً بها إلى بوسطن. جميع علماء الآثار نهبوا ما استطاعوا، لا في دونهوانغ وحسب بل في العديد من المواقع في مقاطعة غانسو وتركستان الصينية. وكانت الصين بلا قوة لإيقافهم.

وصلت الأخبار إلى بكين وشنغهاي عن شعب المحيط الذي يغزو كهوف الألف بوذا، وهذا ما زاد إيقاد غضب شباب الصين الحضري الوطني بشكل متزايد. وفي ذلك الوقت، كانت الصين قد انهارت انهياراً كاملاً، بعد فشل ثورة العام 1912، ثم بعدئذٍ عانت من إذلال معاهدة فرساي في العام 1919، وهي التي عملت، في إنهائها للحرب العالمية الأولى، على تسليم كل امتيازات ألمانيا في الصين إلى اليابان. وقد لعب عجز الحكومة الصينية عن وقف نهب تراثها الفني الثمين دوراً كبيراً في حفز شباب الصين على إعادة اختراع البلاد، وإعادة الحيوية لها، وإعادة تقويتها. وكانت تبرز موجة ضخمة من القومية في مدن الشرق، ومع حلول العام 1925، حين عاد لانغدون وارنر للقيام بزيارة ثانية إلى الكهوف، لم يستطع الحصول على أي وصول إليها. وكان الباب قد أغلق على عشرين عاماً من السلب والنهب، الذي كان له أثر أساسي على النفس الصينية.

وما تكشف بعدئذٍ، مع ذلك، كان مأساة مزدوجة (كما هي المآسي الصينية في الغالب) وذلك لأن ما استقر عليه الشباب الوطني المهتم في الصين أخيراً من أجل الإنقاذ كان هو الحزب الشيوعي الصيني تحت الرئيس ماو. وماو لم ينقذ ماضي الصين، بل دمره. وفي أثناء الثورة الثقافية، صار أي شيء قديم أو ديني هدفاً، وكثير من الكنوز الموجودة على طول طريق الحرير، ومن جملتها بعض الكهوف في دونهوانغ أتلفت.

والآن، وبعد مائة عام على أخذ ستاين لفافات الورق، وبعد أربعين عاماً من مجيء الحرس الأحمر عاملاً بمطارقه، تنفتح الكهوف في دونهوانغ للجمهور، وتدر تجارة السياحة كميات كبيرة من النقد الحاضر إلى المنطقة. وكهوف الألف بوذا، ودونهوانغ نفسها، تنتقم بالتدريج من إهانات الماضي وتتحقق من أنها لن تحدث ثانية. وثقة المدينة بنفسها المكتشفة حديثاً يجري عرضها متألقة بثلاثة حروف صينية بأضواء النيون على قمة قيادة الحزب الشيوعي في مركز دونهوانغ. وتقول:

«اندفعوا نحو الرفاهية المعتدلة».

تقع كهوف موغاو على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً عن دونهوانغ، وكان أوريل ستاين قد وصل إليها على الجمال عبر امتداد قصير للصحراء من المدينة. وفي هذه الأيام، تئز حافلات السياح وسيارات الأجرة ذهاباً وإياباً كل اليوم. إنها مسافة قصيرة للسواقة، تمر إلى جانب مطار المدينة الصغير ولكن المشغول، وإلى الصحراء المفتوحة واسعاً مرة أخرى لمدة قصيرة، قبل أن ترى وجه منحدر أصفر منخفض أمامك إلى يمينك، منقطاً بالكهوف مثل نخاريب قرص العسل. ويقف بجانبها برج من أبراج الهاتف الخليوي.

وأتعجب بصوت عال لسائق سيارة الأجرة السمين عن طبقات الدين المتراكمة في هذا المكان. «إنه مثير للعجب كيف كانت هذه المنطقة مثل هذا المركز للبوذية منذ ألف وستمائة عام، ثم جاء الإسلام قُدماً وحل محلها كلها».

ويهمهم

وأقول بعد توقف: «والآن، إنها طبقة من الإلحاد». ويهمهم ثانية.

وأسأله: «هل تؤمن بأي شيء؟»

ويجيب: «لا، لا أؤمن».

«وهل تظن أنها كلها خرافة ؟»

«نعم». وهو يومئ برأسه، ولا يلقي انتباهاً فعلياً. ثم يشير إلى أول الكهوف، المقطوعة في الوجه الصخري بارزة إلى يميننا. «هذه هي الكهوف التي اعتاد الرهبان أن يعيشوا فيها. أما الكهوف المرسوم عليها فهي في الأعلى أمامنا».

صور ستاين للكهوف تظهر مداخلها على ارتفاع خمسين قدماً، لا يمكن الوصول إليها إلا بسلم. في الستينيات من 1960، مع ذلك، قبل جنون الثورة الثقافية، والكهوف في حالة سيئة بعد عقود من الإهمال، بنيت ممرات مشي إسمنتية خارج الصفوف الثلاثة من الكهوف، وذلك لكي يكون كل الذي عليك أن تفعله هو أن تتسلق بعض الدرجات لتصل إليها. وأضيف نوع من الإسمنت المسلح بوجه من الحصى إلى وجه المنحدر كذلك، لمنعه من الإنهيار حسب ما يفترض، وأضيفت أبواب قوية لكل كهف لضبط الوصول إليها. وجميع هذه التجديدات قد تكون ضرورية، ولكنها مجتمعة معاً تعطي وجه المنحدر مع ممرات المشى فيها جو مشروع إسكان حضري مبني بناء سيئاً. وهذه أول زيارة لي إلى الكهوف، ولدى شرائي لتذكرتي، أدخل عبر البوابة، وأمشي نحو الكهوف، وأنا لست متأكداً بأمانة إن كانت هذه هي كهوف الألف بوذا المشهورة التي بلغت ألفاً وستمائة عام من عمرها أو هي بعض الغرف المستخدمة للتخزين.

بعد أن تصير معتاداً على التحديث الغريب نوعاً ما للخارج، مع ذلك، تستطيع أن تبدأ بالغوص في كل تلك الحالة العقلية المتمثلة في التعجب من أن هذه الكهوف كانت هنا طوال ألف وستمائة عام وهي الحالة العقلية الواضحة على وجوه كثيرين من الزوار وهم يطوفون في الموقع.

دخلت البوذية الصين في القرن الأول بعد الميلاد، ولكن أسرة هان كانت كونفوشيوسية بشكل علني، ولم تستطع البوذية، حتى سقوط الهان، وفترة عدم الوحدة من 220 إلى 589 بعد الميلاد، أن تصنع غزوات حقيقية في الصين. وتقارن تلك الفترة أحياناً بوصف إدوارد جيبون لأوروبة بعد سقوط روما في العام 476 بعد الميلاد بأنه «انتصار البربرية والدين».

الكهوف جميعها من صنع الإنسان، وأول كهف يبدأ تاريخه من 366 بعد الميلاد، حين رأى، كما تقول الأسطورة المحلية، راهب بوذي اسمه لوزون رؤية بوجود ألف

بوذا هنا وأقنع حاجاً ثرياً من طريق الحرير بأن يمول أول كهف معبد. وطوال قرون نُحِت خمس مئة منها من الصخر. وبعض الكهوف ضئيلة، وأخرى تصل إلى أكثر من ارتفاع خمسين قدماً لتؤوي تماثيل ضخمة لبوذا. ومع مجيء الحجاج على طول طريق الحرير، نحتوا المزيد من الكهوف، وكثيرون، مثل الراهب المشهور شوان دزانغ، جلبوا معهم كتباً مقدسة جديدة. وكان التجار يرعون كهفاً ليكون مكاناً للصلاة من أجل السلامة حين السفر في طريق الحرير. ثم أهملت في القرن الرابع عشر تقريباً، مع مجيء الإسلام، وأعيد اكتشافها بعد خمس مئة عام فقط.

والكهوف رائعة مؤثرة. وتابعت أنا السير خلف مجموعة سياحية مكونة من صينيين من الأرض الرئيسية، ومن سياح تايوانيين معاً. والمرشد يخبرهم كيف أن أقدم العمل الفني هو من أسرة ووي من القرن الرابع بعد الميلاد، حين كانت البوذية تبدأ بمد جذورها. وفن هذه الفترة مازال يحتفظ بتأثيره الهندي، وهو واضح في التماثيل النحيفة مع الأيدي الصغيرة والرؤوس الكبيرة. وفي أثناء القرنين السادس والسابع، حين نمت التجارة على طول طريق الحرير وزاد التأثير الصيني، بدأت الرسومات والتماثيل تشتمل على المزيد من الأشكال الأنثوية، مع تنامي تأثير الآلهة الصينية الأنثى غوانيين.

لا يسمح بأي أضواء اصطناعية في الكهوف، ولذلك فالمرشد يستخدم كشافاً لتقوية الأشعة الضعيفة لضوء الشمس الذي يصارع إلى الداخل من خلال المداخل الضيقة. العديد من المغارات مزينة برسوم من أشكال بوذية وقصص من الماضي وأفاريز ملونة كذلك، في الألوان المشرقة الأصلية من برتقالي، وأخضر، وأزرق.

وفي الحال تأتي إلى أشهر كهف في كل المجمع، وهو الكهف رقم 17. إنه موضوع في الصخر في منتصف الطريق على طول الممر الذي يقود إلى كهف آخر.

ويقول المرشد: «هذا هو الكهف المكتبة. ففي العام 1900 وجد هذا الكهف بالصدفة وانغ يووانلو، رئيس رهبان دونهوانغ الذي عين نفسه بنفسه، وكان الكهف قد أغلق إغلاقاً محكماً على نحو كامل. وبداخله، اكتشف كنزاً من مجموعة نفيسة من الوثائق القديمة، عمرها ألف سنة تقريباً، كانت قد حفظت في هواء الصحراء الجاف».

ويصف المرشد السياحي بعض الوثائق، ومن جملتها دياموند سوترا «لكن اللصوص وصلوا بعدئذٍ».

وكان اللصوص هم ستاين، وبيلليو، ولو كوك، ووارنر، وآخرون. ولا يكشف المرشد عن أي عاطفة وهو يروي قصة الكيفية التي سرق بها الأجانب مكتبة الكهف، ونقلوا بها المحتويات وعادوا بها إلى متاحف أوروبة. وهو يقول كلمة لصوص من دون أي عداوة حقيقية، وبِوَصفٍ مباشر غير عاطفي حول شيء ما حدث منذ مائة عام.

اتبعت المجموعة طوال ساعة أو ما يقاربها، ثم انسلخت عنها وتوجهت إلى المتحف الصغير، الذي يدرج في مسرد مصور كل تاريخ «اللصوص» وما أخذوه، مكتملاً مع صور ستاين، وبيلليو وآخرين. وفي طريق الخروج، أبدأ بالتحادث مع المرأة التي تقف خلف المنضدة.

وأسألها: «هل غفرتم لنا فعلنا كل هذا ؟»

وبطريقة صينية مؤدبة نموذجية، تخفض رأسها ولكنها لا تجيب فوراً.

وأضغط عليها: «لم تغفروا فعلاً، هل فعلتم ؟»

«لا. أنت على حق. لم نغفر فعلاً».

وأحاول أن أخفف حالة المزاج قليلاً، وأخبرها أنني على وشك أن أذهب إلى لندن، وربما أستطيع أن أتحدث بكلمة إلى الناس الموجودين في المتحف البريطاني وأطلب منهم أن يعيدوا المخطوطات الكنز.

وتقول هي: «جيد. يجب أن تفعل ذلك. «ووجهها يشرق». من فضلك افعل ذلك».

وأنهي اليوم في ملمح جذاب رئيسي آخر من دونهوانغ، وهو الرمال المغنية، وهي سلسلة من الكثبان الرملية سميت على اسم الأصوات الغريبة المخيفة التي يفترض أن تصدرها حين تهب الريح. وبالنسبة إلى أولئك الذين عبروا عن دهشتهم ورضاهم بتعابير أوه، وآه بطريقتهم عبر الثقافة العالية لكهوف الموغاو، تقدم الرمال المغنية فرصة لإبداء الدهشة والرضا بأوه وآه في جو أكثر استرخاء بقليل، لأن الملمحين الرئيسين الجاذبين هنا هما ركوب الجمال وركوب الرمال.

حشد من السياح في الحر الشديد، من الصينيين والأجانب، ينظرون بعصبية إلى حشد من الجمال في الحر الشديد عند مدخل الرمال. ومن حين إلى آخر يقوم زوج من الناس بالانفصال عن مجموعتهم ويتجهون إلى عضو من جمعية الجمال يكون ودوداً إلى أفضل حد يستطيعون أن يجدوه، ويتسلقون بصعوبة على السرج الموجود على ظهر الحيوان بمساعدة مالك الجمل، ثم تجري قيادتهم إلى الخارج عبر الرمال. لا شيء يقول تماماً «طريق الحرير القديم» مثل مرأى جمل بكتيريا ذي السنامين وبوزن طنين، وهذه الجمال مطلوبة طلباً كبيراً حيثما يوجد السياح الذين يريدون أن يعاودوا العيش في الإثارة التي تعطيها رحلة شاقة عبر كثبان الرمل.

وأنا أقف محاولاً أن أقاوم الانجذاب إلى مثل هذا العرض المثير للازدراء من السياحة الطائشة. ولكن الرغبة الملحة لخيالي الخاص الشرقي أمسكت بي وسيطرت. فتقدمت جانبياً إلى واحد من ساقة الجمال باقتراب مثير للشفقة من شخص يحاول يائساً ألا يبدو مثل سائح، وفي نهاية الأمر أتسلق على حيوان يصدر ضجة على نحو خاص وله رائحة خاصة. والمسافة مسيرة نصف ميل فقط في ظلال الكثبان الرملية الهلالية إلى بحيرة صغيرة هي بحيرة القمر الهلال، المخبَّأة بعيداً بين جبال من الرمال. وكانت البحيرة قد اجتذبت الحجاج طوال قرون. وسرت في أثر امرأتين من هونغ كونغ، تصرخان وتتحادثان وتصيحان على جمليهما بلهجة كانتونية من اللغة الصينية طوال الطريق إلى البحيرة.

وينتظر سائق الجمل صعودي إلى البحيرة وأنا أتعرق وأشق طريقي صاعداً درجاً خشبياً طويلاً جداً قُطع في الرمال إلى قمة الكثبان. من هناك، يطل منظر مذهل بعيداً فوق بحيرة بشكل الدمعة، وفوق الكثبان، والمدينة فيما وراءها. هناك حشد من الناس في القمة، كلهم يجلسون ليستجمعوا أنفاسهم وليستمتعوا بالمنظر، مع نسمة صحراوية لطيفة تهب ومع غروب الشمس متفجراً أمامنا.

الطريق في النزول أسهل نوعاً ما. ويتضمن الجلوس على مزلقة صغيرة تبدو أكثر ما يكون مثل صينية الشاي وتندفع بعيداً، والرمال تتطاير في كل مكان حولك كلما أسرعتَ، صارخاً، إلى أسفل الكثيب الرملي.

ميلدريد كيبل والأختان فرنش جئن إلى دونهوانغ مرات عديدة في أثناء العشرينيات من 1920 والثلاثينيات 1930، ويوجد وصف رائع في واحد من كتبهن لثلاث مبشرات إنجليزيات متوسطات العمر يركبن الرمال. ومازلت تستطيع تقريباً أن تسمع الصراخ.